دعبل الشاعر الشجاع الوفى

للأستاذ عبد المعظم على قناوي

يتربص الرجل أن تضع زوجه حملها ليتخير لوليدها أحسن الأسماء ، فإن كان من التقاة الهداة تيمن باسم من يرى فيه الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة ، وإن كان من الأثرياء أو السراة دارت بخلده أسماء الأغنياء والأشراف ينتقى منهم من يرى مسماه المثل فيما يستهويه ، ولا أحسب والداً أو والدة يختاران لوليدهما اسماً قبيحاً أو لقباً مستهجناً لا سيما والأسماء بغير ثمن ، إلا إذا جاء ذلك ساعة دعابة أو مرح ، أوعقب واقعة أو حادث كأبى الشيص وخندف وثعلب وغيرها من الألقاب والكنى والأسماء .

وإذن فلم سمى أبو دعبل ابنه بهذا الإسم ؟ ألأنه رأى فيه منة وصلابة ؛ حتى إنه ليشبه الناقة القوية الضارعة ؟ أو لأنه لاحظ المنفعة والفائدة ، فللناقة لدى العرب من الفوائد ما لها ، فهى عماد حياة العربى ، كما أن الثور كان قديماً رأس مال المصرى . لعل أبا دعبل لاحظ الأمرين معاً ؛ فقد كان دعبل قوى الأسر طويل الجسم ، ولا بد أن يكون قد توسم فيه سراوة طبع وصفاء ذهن ، أو على الأقل هذا ما يراه كل والد فى ولده متى أهلّ ، فكرمه بهذا الإسم . ولقد وصف العرب الناقة ومنحوها من الصفات والنعوت ما أفعمت به أشعارهم ، وهذه معلقة طرفة بن العبد أبرز محاسنها وصف ناقته وصفاً دقيقاً فى نحو ثلاثين بيتاً ، فلم يترك عضواً إلا أبدع فى تصويره ؛ فمن ذلك قوله يصف خدها وعينيها ، ولعلهما أقل أعضائها حسناً :

وخد كقرطاس الشآمى ومشفر ... كسبت اليمانى قده لم يجرد

وعينان كالماويتين استكنتا ... بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

ونتقل من سبب تسميته إلى حياته ونشأته الشعرية التى تبين صفتيه اللتين سنتحدث عنهما .

ولد دعبل فى العصر الذهبى لدولة بنى العباس ، فالملك ثابت الأساس موطد الأركان ، لايعرفون لبنى أمية شأنا ، ولا يخافون من بنى علىّ نقضاً ، فالأولون قبع بعضهم فى دورهم يبغون نجاة ويطلبون سلامة وأمناً ، وبعضهم هجر جزيرة العرب ، ونزح من المشرق إلى المغرب ؛ فأسس ملكاً وبنى دولة ، وأما الآخرون فاكتفوا بتلك الإمامة الوهمية يتوارثونها إماما عن إمام ، وشب دعبل عن الطوق ، واصطنع الشعر يعرضه على شعراء عصره ، وكان مسلم بن الوليد أدناهم إلى نفسه ؛ فما زال هذا شأنه حتى أمره أستاذه بإذاعة شعره ؛ لأنه آنس منه إجادة ، ورأى فيه روعة ، وكان أبدع ما أنشد ما قاله فى مدح آل علىّ وذكر مناقبهم ، وتعداد آثارهم ، ورثاء قتلاهم ، والتحسر على صرعاهم حتى سار بحق شاعرهم الذائد عن حياضهم ، الثابت على ولائه لهم ، لا يخشى فى حبهم لوماً ولا يخاف من إعلانه سخطاً ، بل هو بادى الخلفاء العداء ، فالملك لله وحده ، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ؛ فماذا يبعث فى نفسه الهلع وهو ينصر آل الرسول ؟ ولكن أليس الرعديد الخوار قرأ هذه الآية كما قرأها دعبل ؟ لقد قرأها ولكنّ هلعه أنساه إياها ، وذكره بقول الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فهو يتقى الشر ويتحاشى أن يقع فيه ، ولكن دعبلا كان يرى أنه فى نصرة آل علىّ يدعو لله ويدفع عن آل رسول الله ؛ فإن فاته زخرف الدنيا ؛ لم يفته أجر الآخرة ؛ إلى أنه يتصف بخلال نبيلة عدا الشجاعة فى الحق ، والجرأة فى الذود عنه شجاعة وجرأة يحسبهما الجبان طيشاً وحمقاً ويراهما الشهم النبيل رجولة ومنة ، ولله قول القائل فإنه ليصور فى وصفه دعبلا :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناجى[(١)]

كانت حياة دعبل أصدق مثل على أن الآجال موقوتة لا تستأخر ولا تستقدم ، فإنه عادى أولى البطش والطول ، وبادى البغضاء ذوى القوة والحول عداوة لدودة لا تعرف هوادة ، يذمهم ويقذع فى ذمه ، ويهجوهم ويفحش فى هجوه ، غير عابىء بما قد يصيبه ، فأرض الله واسعة ، وإذا قلته دار أقلته ديار ، وحسبه أن يجد من يقاسمه زاده ويشاطره رأيه ، روى عنه أنه قال : « لى خمسون سنة أحمل خشبتى على ظهرى أدور على من يصلبنى عليها فلا أجد من يفعل ذلك » .

والسر فى شجاعته أنه كان أول أمره وبدء نشأته من قطاع الطريق وولغة دماء البشر ، يميل إلى إشهار الشر ، ورفع يد البغى فى وجوه من يحاولون مساءته ، قال له أبو خالد الخزاعى : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله طريد شريد ، هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك ؟ فقال له : ويحك ! إنى

(١) البيت لجرير من قصيدة يمدح بها الحجاج .

تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على رهبة ، ولا يبالى بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ، ولم يكن ذلك فيه انتفع بقوله ، فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء الفرع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع . قال أبو خالد . فضحكت من قوله وقلت : والله هذا مقال من لا يموت حتف أنفه ! »

بهذه النفسية الحانقة على البشر كان يعيش ، وبهذا المنظار الأسود الذى يرى به الناس صماليك أوغاداً كان يرى كثرة مباشريه ومعاصريه ، فكيف يموت حتف أنفه ؟

لقد تحققت كهانة صاحبه ، فقد مات مقتولا بعد أن طارده الخلفاء والوزراء ، وانتهت حياته على يد أتباع مالك بن طوق أمير عرب الشام فى قرية من قرى الأهواز اغتالوه بها ، وانتقموا لعداته وهم كثر منه .

وفى دعبل صفة أخرى غير الشجاعة ، تلك هى الوفاء الصادق الذى لا يعرف فيه ميتا ، والإخلاص الراسخ لا يشوبه خداع أو ختل ، وفا لآل على على ضعفهم ، ونصرهم بشعره طوال حياته على غير خلق الشعراء ، وليعذرنا سادتنا شعراء عصرنا « الذين تستولى عليهم عواطفهم ، وتتملكهم أهواؤهم ، فمن أجزل لهم صلته حمدوه ومدحوه ، ومن قبض دونهم يده نبذوه وذموه ، وله فى ذكرهم والإشادة بهم والتنبيه على شأنهم ووجوب إعظامهم قصائد رائعة وأبيات خالدة تدل على أن نظمه فيها كان صادراً عن شعور حار ووجدان متدفق وعاطفة حافزة ، بل تدل على أنه كان رجل عقيدة ورأى وإيمان ومذهب ، لا تأخذ منه زعازع أو أعاصير ، ولا يبلبل إيمانه مآسى ومحن ، ومن قصائده الباقية على الدهر قصيدته التى وهب له من أجلها على بن موسى الرضا عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه بردة من ثيابه أريد على بيعها بثلاثين ألف درهم ، فأبى أن يساوم فيها ، فقطع الراغبون فيها عليه طريقه ليأخذوها قسراً فقال لهم : « إنها تراد لله عز وجل وهى محرمة عليكم » . فدفعوا له فيها المبلغ المتألف ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه فأعطوه كما واحداً ، فكان بين أكفانه ، وأول هذه القصيدة هو :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذى الثفنات[1]
ديار عفاها كل جون مباكر ... ولم تعف للأيام والسنوات

ومنها :

ألم تر أنى من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد حفل القصرات
بنات زياد فى القصور مصونة ... وبنت رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفاً عن الأوتار منقبضات
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد ... لقطع قلبى إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والحرمات

وهى قصيدة طويلة تسيل عيون أبياتها بالعبرات ، وتصطخب أمواج بحرها بالحسرات ، فإذا كفكف من دمعه وهدأ من روعه ، فلأنه ينتظر أن يستأمن الدهر فيؤمنه ، ويستكشف المحن فتنكشف ، فهو ينشد :

فيا نفس طيبى ، ثم يا نفس أبشرى ... فغير بعيد كل ما هو آت
فإن قرب الرحمن من تلك مدتى ... وأخر من عمرى لطول حياتى
شفيت ولم أترك لنفسى رزية ... ورويت منهم منصلى وقناتى
أحاول نقل الشمس من مستقرها ... وأسمع أحجاراً من الصلدات

ولقد رثى الحسين رضى الله عنه رثاء يدمى العيون ويفتت الأكباد حتى لكأنه حضر مصرعه ، وشاهد موقعه ، فمن ذلك قوله :

رأس ابن بنت محمد ووصيه ... يا للرجال — على قناة ترفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع ... لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى ... وأنمت عينا لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصم نعيك كل إذن تسمع
ما روضة إلا تمنت أنها ... لك مضجع ولحط قبرك موضع

هذه الأمثلة تدل على أن الرجل كان لا يخشى فى رأيه لوماً ، ولا يرهب أحداً ؛ فإنه ليهجو فى سبيل مدحه آل على بنى العباس بشر القول ومقذع الهجاء . وأرى أن المأمون لم يكن ليقسو عليه لأنه عرف فيه خلق الشجاعة والوفاء فأجله وأعظمه ، وكان كثيراً ما يستنشده شعره .

عبد العظيم على قناوى

(١) السجاد زين العابدين على بن الحسين وكان السجود أثر فى ركبته ، ولقب بهذا لطول سجوده وكثرته